مستويات التناص بين (المقامة الأسدية) لبديع الزمان الهَمَذاني و(صفة الأسد) لأبي زُبَيْد الطائي

الدكتور محمود المقداد*

الملخص

هَدَفَ هذا البحث إلى إثبات وجود تناص بين نص (المقامة الأسدية) لبديع الزمان الهمذاني (م398هـ) ونص (صفة الأسد) لأبي زبيد الطائي (م60هـ)، وهو النص الذي رواه ابن سلام في ترجمته للشاعر، نظراً إلى ما يجد المرء بينهما من وجوه تشابه تتمثل في عدد من المستويات التي يصعب أن تأتي متوافقة بين نصين متباعدين زمنياً وبالتسلسل ذاته من غير وجود تأثير للنص الأقدم في النص الأحدث.

وقد بدأنا بتوضيح مفهوم التناص، الذي يعدُّ قانوناً فعالاً في الآداب كلّها، يحافظ على التواصل بين المحدث أو المعاصر أو المتأخر من جهة، والقديم أو التراث أو السابق من جهة أخرى. والتناص ظاهرة طبيعية لا يستغنى عنها، لأنها تصل الأجيال بعضها ببعض عبر التاريخ الأدبي، لأن الإبداع أياً كان لا يمكن أن يأتي من فراغ: وعناصره المكونة له تأتي من مصادر كثيرة بعد أن تمتزج معاً في ذهن المبدع، ليخرج علينا بلون جديد له شكله وخصوصيته المميزة له من سائر عناصره الأولية كل على حدة.

* قسم اللغة العربية بكلية الآداب الثالث- (فرع درعا) -جامعة دمشق

وقد توصلنا إلى الكشف عن عدد من مستويات التناص العامة والخاصة بين النصين المذكورين، ممَّا كان القدماء يرون فيه نوعاً من السرقة الأدبية في النثر، وقد طرح ذلك كله سؤالاً مهماً يقول: هل كان نص أبي زبيد هو الذي ألهم بديع الزمان فن المقامات؟ ورأينا أن ذلك ممكن بشرط إثبات أن مقامته الأسدية كانت أولى المقامات التي أنتجها، وليس لدينا دليل قاطع على أنها كانت كذلك.

مفهوم التناص:

طرحت النظريات النقدية القديمة قضية (التناص) أو (تأثُّر المتأخِّر بأعمال المتقدم الشعرية أو النثرية) أو (استلهامها) بشيء من الحدَّة، التي قاربت التُّهمة، تحت اسم (السرقات الأدبية)[1]، وخفَّف بعضهم حدَّة هذا المصطلح الاتهامي فجعله (أخذاً) من المتقدِّمين، و(نظراً) إلى ما عندهم، و(اتِّباعاً) لأثرهم،و(إفادة) منهم[2]. وهي جميعاً مصطلحات أدق وألطف من القول بالسرقة، وذلك لأن خيوط القديم لا بدَّ لها من أن تظهر - شئنا أم أبينا - في نسيج الجديد أياً ما كان، لأن المبدع ليس منبتاً عن الأصول وعن القديم بأي حال، بل لا ينبغي له أن ينبت عنها ولا عنه، كما أنه لا يأتي بشيء من الفراغ، نظراً إلى أن الفكر البشري متصل ومتواصل، وقد كان أستاذنا المرحوم الدكتور شكري فيصل يلح في محاضراته - ونحن على مقاعد الدرس والتحصيل في الجامعة - على ضرورة هذا الاتصال والتواصل بين الجديد والقديم لئلا يخرج المبدع خروجاً تاماً من جلد الأصالة، ويصبح غريباً عن القديم، ومن أجل حفظ الوحدة الثقافية في الأمة.

والحقيقة أن مصطلح (التناص) الحديث تعبير دقيق وموضوعي عن مسألة تأثر المحدَث بالقدماء أو المتقدِّمين، لأن مفهومه يقوم على فكرة البحث عن ينابيع النص الأولى، أو بتعبير آخر عن نَسَب النص وأصوله السابقة[3]. ويعني التناص (والأصل الصرفي له: التناصُص) التفاعل بين النصوص، وقد انصرف المعنى تحديداً إلى تفاعل نصوص المتعاصرين بعضها ببعض، وتفاعل النصوص المعاصرة أو المتأخِّرة

1 - حتى إن بعض القدماء ألف كتاباً بعنوان (الإبانة عن سرقات المتنبي لفظاً ومعنى).

2 - وهذا ما سار عليه الخالديان في كتابهما (الاختيارات) على سبيل المثال، حتى إن كلمة (سرقة) لم ترد فيها ولو مرة واحدة.

3 - انظر: دراسات في النص والتناصية (مقالات مترجمة) للدكتور محمد خير البقاعي- مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1، 1998: مقالة (رولان بارث) R. Barthes: من العمل إلى النص، ص16.

بالنصوص القديمة. وهذا التفاعل - في رأينا - ظاهرة طبيعية في الآداب كلّها ولا شِيَة فيها. وهذا يؤكد صدق المقولة التي تنص على أن (لا إبداعَ من فراغ)، بل هناك تفاعلات وإضافات جديدة، وبنِسَبٍ متفاوتة.

كان موقف النقاد الذين تكلموا على السرقات ينطلق أساساً من منطلق أخلاقي محض، لأن تهمة السرقة شيء عظيم في العقيدة الإسلامية لكونها داء هداماً لبنية المجتمع وناخراً فيها، إلا أن هنالك منطلقات أخرى كانت تتوارى خلف هذه الواجهة الأخلاقية: منها انتقام الناقد من الشاعر أو إدانته أمام المعجبين به، ومنها طلب الشهرة والصيت، ومنها الغيرة والحسد، وقديماً كان في الناس الحسد، ومنها إبراز الناقد سعة اطلاعه على القديم والمعاصر من إنتاج الشعراء، وقدرته على المقارنة والكشف، ومنها التباهي الثقافي.

غير أن الغالبية العظمى من النقاد ركزوا جهودهم على كشف سرقات الشعراء من الشعراء، أي أخذهم من جنس بضاعتهم، لأن الشعراء كانوا دوماً أكثر شهرة من غيرهم في الأدب وبين الناس عبر الأجيال، إلا أن بعضهم أثار قضية سرقة الناثرين من الشعراء، كابن الأثير (م637هـ)[4]، وكان يبيح هذه السرقات للناثرين من أي مصدر كان، ولم يسمِّها سرقة، ولم يلصق هو أو غيره من النقاد أي تهمة أخلاقية أو إدانة بهؤلاء الناثرين، وقد أطلقوا على هذه الظاهرة اسماً لطيفاً هو (حل الشعر في النثر) أو (حل العَقْد)، وكان ابن الأثير يجعل (حل الشعر) ركناً أساسياً لا بدَّ منه لكُتّاب الترسُّل، وكان يدعو هؤلاء الكتاب إلى حفظ (عِدَّةٍ من دواوين فحول الشعراء، ممَّنْ غلب على شعره الإجادة في المعاني والألفاظ)[5]. كما كان بعض هؤلاء النقاد القدماء يسوغون للشعراء استلهام معاني الناثرين فيما أسموه (نظم النثر في

4 - في كتابيه (الوشي المرقوم في حل المنظوم) و(المثل السائر).

5 - انظر كتابه: المثل السائر، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 1411هـ-1990م، 126/1.

الشعر) أو (عَقْد النثر)، من غير أي إدانة تذكَر، بل كانت حماستهم لهذا الأمر واضحة كل الوضوح، ومن أبرز من تناول هاتين الظاهرتين المتعاكستين أبو منصور الثعالبي (م429هـ)[6]. كما أن سرقات الناثرين من النثر والناثرين لم تلفت انتباههم كثيراً، ولو أنهم تنبهوا على هذه الظاهرة لأسموها (حل النثر في النثر)، والشواهد عليها أكثر من أن تحصى.

التناص بين نصين نثريين:

وقد دفعتنا قراءة متأنية لنصين قديمين أولهما من أوائل القرن الأول للهجرة، والثاني من أواخر القرن الرابع للهجرة، إلى الكشف بالمقارنة عن بعض مستويات التناص بينهما، وقد كان المتأخِّر بعنوان (**المقامة الأسدية**)[7] لبديع الزمان الهمذاني، وكان المتقدِّم بعنوان (**صِفَة الأسد**)[8]، وهو نص نثري للشاعر أبي زُبَيْدٍ الطائيّ، كان قد تحدَّث به في مجلس الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان (ر) بالمدينة المنورة قبل سنة 35هـ.

وتثير المقارنة بين النصين جملة من التساؤلات: هل قرأ بديع الزمان نص أبي زبيد قراءة دقيقة ومتأنية؟ وهل أعجب بهذا النص؟ وهل تأثَّر به تأثراً عميقاً إلى درجة أننا نلمس بين نصه ونص أبي زبيد عدة مستويات من التناص؟ وهل كانت (المقامة

6 - في كتابه (نظم النثر وحل العقد).

7 - انظر نصها في: شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، ط2، 1381هـ/1962م، ص35-46 (ورقم هذه المقامة فيه 6).

8 - انظر نصها في: طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين لمحمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، تاريخ مقدمة المحقق 1394هـ/1974م، ص593-599 وروي أيضاً في: الأغاني لأبي الفرج، طبعة دار الكتب المصرية، 12/126-131 وفي: الحماسة البصرية، تحقيق د. عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1420هـ/1999م، ص1504-1507 مع اختلاف يسير بين روايتيهما ورواية ابن سلام.

الأسدية) أولى مقامات بديع الزمان؟ وإذا ثبت لنا ذلك فهل يمكن القول إن بديع الزمان استلهم فكرة تأسيس هذا النوع الجديد في نثرنا الأدبي العربي من نص أبي زبيد وطوَّره وعمَّمَه على موضوعات أخرى سوى وصف الأسد؟ وما الأدلة التي تثبت استلهام هذه المقامة من نص أبي زبيد أصلاً؟ وهل بين طريقتَيْ نسج النصين وأسلوبيهما صلة نسب وتشابه؟

إن نص أبي زبيد في (صفة الأسد) يكتسب روعته أو مشروعية خلوده في نثرنا الأدبي من ذلك التأثير الذي أحدثه في الحاضرين في مجلس الخليفة الذي كان ينظر في

الحضور في أثناء حديث أبي زبيد عن هيبة الأسد وصفاته المرعبة، ويرى تلون وجوههم وجحوظ أعينهم وارتعاد فرائصهم وقرع أسنانهم، وكأن الأسد بينهم يوشك أن ينقضّ على كل واحد منهم، حتى اضطر الخليفة إلى أن يقطع على أبي زبيد حديثه عنه فجأة وبشيء من الحدة، لما رأى من رعب في نفوس القوم دفعه إلى أن يقول لأبي زبيد وهو يدعو عليه دعاء قاسياً: (اسكت، قطع الله لسانك، فقد أرعبت [قلوب] المؤمنين!)[9]. وقد اضطر أبو زبيد أن يبتر حديثه ذاك بتراً، ولو أنه أكمله لجاءنا النص بصورة أروع مما نراه.

ولا شك في شهرة هذا النص منذ ذلك الحين، وزادت شهرته لما أثبته ابن سلام في طبقاته مع أخبار أبي زبيد في الطبقة الخامسة من الشعراء الإسلاميين[10].

9 - طبقات فحول الشعراء، ص599.

10 - المصدر السابق، ص593-599 نلاحظ هنا أن صفة (الشعراء الإسلاميين) إنما هي صفة زمانية تتعلق بالعصر، وليست دينية، لأن أبا زبيد كان على النصرانية، ومثله الأخطل والقُطامي على سبيل المثال.

كما أن (المقامة الأسدية) لبديع الزمان وسائر مقاماته قد بهرت المعاصرين له، كما أعجب بها الأدباء الذين جاؤوا بعد زمنه من شعراء وناثرين إلى يوم الناس هذا.

كان أبو زبيد قد عُرِف بإكثاره من وصف الأسد في أحاديثه وأشعاره، وبقي لنا من نثره النص الذي بين أيدينا، وسنذكره لاحقاً، كما بقيت في شعره بقايا من هذا الوصف. وكان سبب سرد هذا النص أن جمعاً من الأنصار والمهاجرين كانوا في مجلس الخليفة عثمان (ر)، وقد حضرهم أبو زبيد، فتذاكروا مآثر العرب وأشعارها، فالتفت عثمان إلى أبي زبيد فقال له: (أَسْمِعْنا بعض قولك، فقد أنبِئتُ أنك تُجِيْد)[11]، فأسمعهم عينية له وفيها وصف الأسد، فقال عثمان (ر): (تالله تفتأ تذكر الأسد ما حييتَ، إني لأحْسَبُكَ جباناً هِداناً)[12]، وكأن فيه عقدة نقص يعوِّض عنها بتهويل هيبة الأسد في نفوس الناس، حتى يسوِّغ رعبه منه، وقد بيَّن للخليفة ذلك فقال: (كلا يا أمير المؤمنين، ولكني رأيتُ منه منظراً، وشهدتُ منه مشهداً لا يَبْرَح ذِكْرُه يتجدَّد في قلبي، ومعذورٌ أنا، يا أمير المؤمنين، وغيرُ مَلُوم)[13].

وقد أوضح لنا الطِّرِمَّاح بن حكيم الطائي، وشهادته شهادة من ابن قبيلته، ما جرى لأبي زبيد مع الأسد حتى ظل يهذي به طيلة عمره، حين سُئل مرَّة: (ما شأنُ أبي زبيد وشأنُ الأسد؟ فقال: إنه لقِيَه بالنَّجَف، فلما رآه سَلَحَ من فَرَقِه[14]، فكان بعد ذلك يصفه كما رأيت)[15]. ويروي أبو الفرج رواية أدق فحواها أن أبا زبيد كان في بعض النواحي ومعه كلب له يُدعَى (أَكْدَر)، فلقيهما الأسد فنبح عليه كلبه - فيما يبدو - فبادر الأسد بافتراسه والانشغال به، ونجا أبو زبيد بعد أن كاد يهلك رعباً، فكانت هذه

11 - طبقات فحول الشعراء، ص594.

12 - المصدر نفسه. والهِدان: البليد الثقيل في الحرب ومن كلامه أكبر من فعله.

13 - المصدر نفسه.

14 - أي أنه عملها في سراويله من شدة خوفه.

15 - الأغاني (ط. دار الكتب)، 131/12.

الحادثة سبب ولعه بوصف الأسد نثراً تارة، وشعراً تارة أخرى[16]، حتى إن قومه لاموه في إكثاره من وصف الأسد وخشوا أن يُلْحِق بهم ذلك العارَ، فردّ عليهم قائلاً: (لو رأيتُم منه ما رأيتُ أو لَقِيَكُمْ ما لَقِيَ أَكْدَر لما لمتموني)[17]. وهذا يعني أن الرعب من الأسد قد تغلغل في أعماق نفسه وعشش في قلبه منذ أن وقعت تلك الواقعة أمام عينيه، ولم تَمَّحِ صورتها من ذاكرته بعد ذلك إلى أن مات. وهذا أمر طبيعي لأن تلك الحادثة كانت أخطر ما مر به في حياته، لأنها كانت تهدَّد مصيره خلال ثوانٍ معدودات من عمره.

من هو أبو زبيد الطائي؟

اسم أبي زبيد (حَرْمَلَةُ بن المنذر)[18]، من قبيلة طيِّئ، وكان أخواله من بني تغلب، وفيهم كانت نشأته ومقامه حتى وفاته لسبب ما. ولد أبو زبيد قبل هجرة النبي (ص) إلى المدينة في تاريخ غير معروف، ونتوقع أن يكون بين البعثة والهجرة، أو قبيل البعثة بقليل. وذهب بلاشير R. Blachère إلى القول: (يبدو أنه ولد في الربع الأخير من القرن السادس [للميلاد])[19]، وإذا افترضنا أنه ولد -بحسب هذا الرأي - سنة 590م مثلاً، فيكون عمره عند البعثة سنة 610م نحو عشرين سنة، وعند الهجرة سنة 622م نحو 32 سنة، ولما كانت وفاته نحو سنة 60هـ[20]، فإنه يكون قد عاش 92 سنة،

16 - المصدر السابق، 12/132-133.

17 - المصدر السابق، 12/133.

18 - انظر: المصدر السابق، 12/127 وقد وهِم ابن قتيبة حين عكس اسمه واسم أبيه فقال: (هو المنذر بن حرملة)، انظر كتابه: الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ط1، 1966، ص301.

19 - انظر كتابه: تاريخ الأدب العربي، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1973، 2/159.

20 - المصدر الشعر والشعراء، ص301. نفسه.

ويدخل في زمرة المعمَّرين، وهو أمر مشكوك فيه. وأمَّا قول ابن الكلبي، كما نقل عنه ابن قتيبة[21] وأبو الفرج[22]، من أنه عاش مئة وخمسين سنة ففيه مبالغة غير مقبولة.

كان أبو زبيد على دين النصرانية وعليه مات في أرجح الآراء[23]، خلافاً لمن قال إن أبا زبيد صحِب الوليد بن عقبة - وهو أخو عثمان (ر) من أمه أروَى - ونادمه منذ أن ولاه عمر (ر) على عرب الجزيرة ونزل في بني تغلب، ثم كان يتردَّد عليه من بعد في المدينة، ثم كان بصحبته حين ولاه عثمان (ر) على الكوفة، ثم عزله عنها لأسباب منها شرب الخمر، فأغراه الوليد بالإسلام فأسلم على يده في أواخر ولايته على الكوفة (ر)[24]. ولعلَّ حضور أبي زبيد مجلس عثمان (ر) المذكور هنا كان بحكم صداقته للوليد أخيه، ولذا قال بلاشير إن منزلته كانت (غير ثابتة عند الخليفة عثمان ابن عفان، وهي قائمة على قصة لا قيمة تاريخية لها)[25]، ويعني بها (وصفه الأسد في مجلسه)، مع أن بلاشير يقر بأن هذه القصة كانت (ذات شكل أدبي رائع)[26]، ويحكم عليها بأنها (قصة موضوعة)[27]، ويصف قصائده ومقطعاته في وصف الأسد بأنها مجرد (تمارين مدرسية لا يؤبَه لها)[28].

21 - الأغاني (ط. دار الكتب)، 137/12.

22 - الشعر والشعراء، ص301 والأغاني (ط. دار الكتب)، 127/12.

23 - تاريخ الطبري، 273/4 ونص الطبري (فلم يزل الوليد به وعنه حتى أسلم في آخر إمارة الوليد). وانظر: خزانة الأدب للبغدادي، 193/4.

24 - انظر كتابه: تاريخ الأدب العربي، 159/2.

25 - المصدر نفسه.

26 - المصدر نفسه. وعلى افتراض أنها موضوعة، فقد أثبتها ابن سلام في ترجمته لأبي زبيد، واطلع عليها كل من جاء بعده بمن فيهم بديع الزمان نفسه الذي يبدو أنه كان من أشد قرائها تأثُّراً بها.

27 - المصدر نفسه.

28 - انظر كتابه: تاريخ الأدب العربي، 159/2.

وقد وصف بلاشير أبا زبيد، قبل الإسلام، بأنه كان شاعراً (جَوّابة)[29]، يزور ملوك الغساسنة وملوك الحيرة[30]، وورد عند ابن سلام قديماً أنه كان (من زوار الملوك، ولملوك العجم خاصة)[31]، ولكنا نجد مبالغة كبيرة في ذلك[32].

عدَّه ابن سلاّم في الطبقة الخامسة من الشعراء (الإسلاميين)[33]، لأنه بدأ بقول الشعر - على ما يبدو - بعد ظهور الإسلام. وليس له شعر في الفترة التي سبقت ظهوره كي نسميه بين الشعراء (المخضرمين)، لأن المخضرم عندنا مَنْ قال الشعر أو النثر قبل ظهور الإسلام، وواصل إنتاجه بعد ظهوره شريطة دخوله في الإسلام إن كان من المشركين لا من أهل الكتاب.

وذكر أبو الفرج بعض صفات أبي زبيد الخَلْقيَّة فقال إنه كان طُوالاً يبلُغ ثلاثة عشر شبراً، وأنه كان جميلاً، ويُروَى أن الوليد بن عقبة أقام في الرقَّة بعد أن اعتزل أهل صفين، فصحبه أبو زبيد، فكانا يتردَّدان على بعض الأديرة، ومات الوليد سنة 60هـ، وقد دفِن هناك على البَلِيْخ[34]، وظل أبو زبيد يزور قبره ويشرب عنده ويُرِيق عليه شيئاً من الخمر، ثم يبكي ويقول[35]:

يا هاجِرِيْ إذْ جِئْتُ زائرَهُ ما كانَ مِنْ عاداتِكَ الهَجْرُ

29 - المصدر نفسه.

30 - طبقات فحول الشعراء، ص593.

31 - فمثلاً توفي الملك النعمان بن المنذر، آخر ملوك الحيرة، سنة 602م: فكيف يمكن أن يزوره أبو زبيد قبل هذا التاريخ وهو ابن عشر سنين أو حتى ابن عشرين سنة ؟

32 - طبقات فحول الشعراء، ص593.

33 - وهو نهر رافد لنهر الفرات في شمال شرق سورية اليوم.

34 - الأغاني (دار)، 4/193-194.

35 - انظر كتابه: تاريخ الأدب العربي، 2/159.

يا صاحِبَ القَبْرِ السَّلامُ على مَنْ حالَ دونَ لِقائهِ القَبْرُ

ولم يلبث أبو زبيد أن لحق به في السنة نفسها، وكان قد أوصى بأن يُدفَن في قبر يجاور قبر الوليد، وقد مر بالقبرين المتجاورين أشجعُ السُّلَمِي (م بُعَيْد سنة 198هـ) فقال[36]:

مَرَرْتُ علَى عِظامِ أبِيْ زُبَيْدٍ وقد لاحَتْ بِبَلْقَعَةٍ صلُودِ

وكانَ لَهُ الوليدُ نَديمَ صِدْقٍ فَنَادَمَ قَبْرُهُ قبرَ الوليدِ

نص (صفة الأسد) لأبي زبيد:

روى محمد بن سلام الجمحي عن رجل يقال له (أبو الغَرَّاف) أنه قال[37]: كان أبو زُبَيْدٍ الطائي من زُوَّار الملوك، ولملوك العجم خاصةً، وكان عالماً بسِيَرهم، وكان عثمان يُقرِّبه على ذلك ويُدنيه ويُدني مجلسه، وكان نَصرانياً، فحضر ذات يومٍ عثمانَ، وعنده المهاجرون والأنصار، فتذاكروا مآثر العرب وأشعارها، فالتفت عثمان إلى أبي زبيد فقال: يا أخا تُبَّعٍ المسيح، أَسْمِعْنا بعضَ قولِك، فقد أُنْبئتُ أنك تُجيد. فأنشده [قصيدته التي يقول فيها]:

مَنْ مُبْلِغٌ قَوْمِيَ النَّائِيْنَ إذْ شَحَطُوْا أنَّ الفُؤَادَ إلَيْهِمْ شَيِّقٌ ولَعُ

ووصف فيها الأسد، فقال عثمان: تالله تفتأ تذكر الأسد ما حَييتَ، والله إني لأحسِبُكَ جباناً هِداناً. فقال: كلا يا أمير المؤمنين، ولكني رأيتُ منه منظراً، وشَهِدتُ

36 - المصدر السابق، 146/5 البلقعة: القفر. والأرض الصلود: الغليظة الصلبة التي لا تنبت

37 - طبقات فحول الشعراء، ص593-599.

منه مشهداً لا يبرَحُ ذكرُه يتجدَّد في قلبي، ومعذورٌ [أنا]، يا أمير المؤمنين، غيرُ مَلُوم. فقال عثمان، وأنَّى كان ذلك ؟ قال:

خرجتُ في صُيَّابَةِ أشراف من أفناء قبائل العربية[38]، ذوي هيئة وشارة حسنة[39]، ترتمي بنا المهارَى بأكسائها[40]، ونحن نريد الحارث بن أبي شَمِر الغساني ملِك الشام، فاخْرَوَّط بنا المسيرُ في حَمَّارة القيظ[41]، حتَّى إذا عَصَبَت الأفْواهُ[42]، وذَبَلَت الشِّفاهُ، وشالَت المياه[43]، وأذكت الجوزاءُ الْمَعْزاءَ[44]، وذاب الصَّيْهَدُ[45]، وصَرَّ الْجُنْدُبُ[46]، وضاف العصفورُ الضَّبَّ في جُحْرِه[47]، أو قالَ في وِجارِه[48]، قال قائلُنا: يا أيُّها الركبُ، غَوِّرُوا بنا في ضَوْجِ هذا الوادي[49]. وإذا وادٍ قُدَيْدِيمَتَنا كثيرُ الدَّغَل[50]، دائمُ الغَلَل[51]،

38 - الصيابة: خيار الناس. من أفناء القبائل: من مختلف القبائل.

39 - الشارة الحسنة: اللباس الحسن الجميل.

40 - ترتمي بنا: تسرع بنا وتقذفنا من بلد إلى بلد. المهارَى: وهي أيضاً المهَاري جمع مَهْرِية، وهي الإبل المنسوبة إلى قبيلة مَهْرَة بن حَيْدَان. بأكسائها: بمؤخراتها، يريد بأنها تسير متتابعة كل بعير يلحق بمؤخرة سابقه.

41 - اخروط: امتدَّ وطال.حمارة القيظ: شدة الحر حتى كأنه قد احمرَّ.

42 - عصبت الأفواه: جفَّ ريقها من شدة العطش.

43 - شالت المياه: قلت ونشفت.

44 - أذكت: أوقدَتْ وسعَّرَتْ. الجوزاء: نجم من بروج الشمس، فإذا انتقل إلى السرطان كان منتهى اشتداد الحر. المعزاء: الأرض الوعرة كثيرة الحصى.

45 - الصيهد: شدة الحر. ذاب: سال، وهو يقصد السراب.

46 - صر: صوَّت. الجندب: الجراد أو نوع منه.

47 - ضاف: نزل ضيفاً. والجحر: بيت الضب.

48 - قال: احتمى من الحر في الظل والبيت وغيره وأخذ غفوة. وجاره: جحره.

49 - غوِّروا بنا: انزلوا للقيلولة، وهي قضاء وقت الهاجرة حتى تبرد. ضوج الوادي: منفرجه.

50 - قديديمتنا: قُدَّامَنَا. الدغل: الشجر الكثير الملتف والمتشابك.

51 - الغلل: الماء الذي يتخلل الأشجار.

شَجْراؤُهُ مُغِنَّة[52]، وأطيارُه مُرِنَّة[53]. فحططنا رواحلنا في أصول دَوْحات كَنَهْبَلات[54]، فأصبنا من فَضَلاتِ الْمَزاود[55]، وأتْبَعْناها الماءَ البارد، فإنا لَنَصِفُ حَرَّ يومنا ذلك ومُماطلَتَه[56]، إذْ صَرَّ أقصَى الخيلِ أُذُنَيْه[57]، وفَحَصَ الأرضَ بيدَيْه[58]. فوالله ما لَبِثَ أنْ جال[59]، ثُمَّ حَمْحَمَ فبال[60]، وفعل فعلَه الذي يليه واحداً فواحداً. فتضعضعَتِ الخيلُ[61]، وتكَعْكَعَتِ الإبلُ[62]، وتَقَهْقَرَتِ البِغالُ: فَمِنْ نافرٍ بشكالِه[63]، وناهضٍ بعِقالِه[64]. فعَلِمْنا أنْ قد أُتِيْنا وأنه السَّبُعُ، ففَزِع كلُّ امرئٍ منا إلى سيفِه فاسْتَلَّه من جُرُبَّانِه[65]، ثُمَّ وَقَفْنا رَزْدَقاً[66]. فأقْبَلَ يتَظالَعُ من بَغْيِه[67]، كأنَّه مَجْنُوبٌ أو في هِجارِه[68]، لصدرِه نَحِيْطٌ[69]،

52 - شجراؤه: أشجاره. مغنة: خصبة معجبة.

53 - مرنة: مغنية.

54 - في أصول: يعني تحت. دوحات: أشجار عظيمة واسعة. كنهبلات: ضخمة وصلبة.

55 - المزاود: الأوعية التي يُجْعَل فيها زاد المسافر.

56 - مماطلة الحر: امتداده وتطاول مدته.

57 - صر أذنيه: أرهفهما ووجههما للسمع.

58 - فحص الأرض برجليه: ضربها وكأنه يحفرها من الفزع.

59 - جال: دار في مكانه من القلق.

60 - حمحم: أطلق صوتاً دون الصهيل. بال: أطلق بوله من الفزع.

61 - تضعضعت: اضطربت.

62 - تكعكعت: تأخَّرت إلى الوراء.

63 - بشكاله: بقيده.

64 - بعقاله: برَسَنه.

65 - جربانه: غمْده.

66 - رزدقاً: صفّاً مستوياً.

67 - تظالع: مال في مشيته وكأنه أعرج. من بغيه: من اختياله.

68 - مجنوب: مقروح في جنبه يميل إليه من الألم. الهجار: تقييد البعير في يده ورجله من شِقٍّ واحد.

69 - نحيط: زفير ثقيل من الغيظ.

ولبَلاعِيْمِه غَطِيْطٌ[70]، ولِطَرْفِه وَمِيْضٌ[71]، ولأرْساغِه نَقِيْض[72]، كأنَّما يَخْبِطُ هَشِيْماً[73]، وإنما يَطَأُ صَرِيْماً[74]. فإذا هامةٌ كالْمِجَنِّ[75]، وإذا خَدٌّ كالْمِسَنِّ[76]، وعينان سَجْراوانِ[77]، كأنهما سِراجانِيَقِدانِ، وقَصَرَةٌ رَبِلَةٌ[78]، ولِهْزِمَةٌ رَهِلَةٌ[79]، وكَتِدٌ مُغْتَبَطٌ[80]، وزَوْرٌ مُفْرَطٌ[81]، وساعِدٌ مجدولٌ، وعَضُدٌ مفتولٌ، وكَفٌّ شَثْنَةُ البَراثِنِ[82]، إلى مَخَالِبَ كالْمَحاجِنِ[83]، فضرب بيديه فأرْهَجَ[84]، وكَشَرَ فأفْرَجَ، عن أنيابٍ كالمعاوِلِ مصقولةٌ، غيرِ مفلولة[85]، وفَمٍ أشْدَقَ[86]، كالغارِ الأخرَقِ[87]. ثُمَّ تَمَطَّى فأشْرَعَ بيدَيْهِ[88]، وحَفَزَ

70 - البلاعيم: جمع بلعوم، وهو مجرى الطعام في الحلق. غطيط: الصوت الذي يخرج مع النفس ولا يجد مساغاً كالمخنوق.

71 - وميض: بريق وتوقد.

72 - نقيض: صوت مفاصله.

73 - يخبط: يضرب ويطأ. هشيماً: نباتاً أو عشباً يابساً.

74 - صريماً: رملاً.

75 - الهامة: الرأس. المجنّ: الترس العريض.

76 - المسنّ: الحجر الذي يُسَنّ عليه السيف والسكين.

77 - سجراوان: خالطت بياضهما حمرة فكأنهما نار موقدة.

78 - القصرة: العنق وأصله. ربلة: ضخمة كثرة اللحم.

79 - اللهزمة: مجتمع اللحم بين الماضغ والأذن من اللحى. رهلة: ضخمة مسترخية.

80 - الكتد: مجتمع الكتفين من الكاهل إلى الظهر. مغبط: مرتفع ممتلئ كأنه غبيط، والغبيط رحل النساء الذي يشد عليه الهودج.

81 - الزور: ملتقى أطراف عظام الصدر. مفرط: ممتلئ باللحم.

82 - البراثن: تكون للأسد كالأصابع للإنسان وفيها المخالب. والبراثن الشثنة: الضخمة الغليظة.

83 - المخالب: الأظافر. المحاجن: جمع مِحْجَن، وهو العصا معقوفة الرأس.

84 - أرهج: أثار الرَّهَج، وهو الغبار.

85 - مفلولة: مثرَّمة أو مثلومة.

86 - أشدق: واسع.

87 - الأخرق: المتَّسِع.

وَرِكَيْهِ برِجلَيْهِ[89]، حتَّى صار ظِلُّهُ مِثْلَيْهِ. ثُمَّ أَقْعَى فاقْشَعَرَّ[90]، ثُمَّ تَمَيَّلَ فاكْفَهَرَّ[91]، ثُمَّ تَجَهَّمَ فازْبَأَرَّ[92]. فلا والذي بيتُه في السماء، ما اتَّقَيْناهُ إلا بأوَّل أخٍ لنا من بني فَزَارَةَ، كان ضَخْمَ الْجُزارَةِ[93]، فوَقَصَهُ ثُمَّ نَفَضَهُ نَفْضَةً فقَضْقَضَ مَتْنَيْهِ[94]، ثُمَّ جَعَلَ يَلِغُ في دَمِهِ[95]. فذَمَرْتُ أصحابي[96]، فبَعْدَ لأْيٍ ما استقدموا[97]، فهَجْهَجْنا به[98]، فكَرَّ مُقْشَعِرًّا بزُبْرَةٍ كأنَّ بينَ كَتِفَيْهِ شَيْهَماً حَوْلِيًّا[99]، فاخْتَلَجَ رَجُلاً أعْجَرَ ذا حَوَايا[100]، فنَفَضَهُ نَفْضَةً تَزايَلَتْ [منها] مَفاصِلُهُ[101]، ثُمَّ نَهَمَ ففَرْفَرَ[102]، ثُمَّ زَفَرَ فبَربَرَ[103]، ثُمَّ زأَر فجَرْجَرَ[104]،

88 - أشرع بيديه: مدهما إلى أقصى حد ورفعهما.

89 - حفز: دفع. وركيه: ما فوق الفخذين من الخلف.

90 - أقعى: جلس على مؤخرته تهيُّؤاً للوثوب. اقشعر: تقبَّض وتجمَّع للوثوب.

91 - تميَّل: تمايل. اكفهر: كَلَح وجهُه وعبس.

92 - ازبأر: انتفش شعرُه وتهيَّأ للشر.

93 - ضخم الجزارة: ضخم اليدين والرجلين والعنق.

94 - وقصه: دقّ عنقه وكسرها. نفضه نفضة: حركه بقوة وهو ممسك به في فمه. قضقض متنيه: كسر عظام جانبي صلبه من الظهر بصوت مسموع.

95 - يلغ في دمه: يلعقه بلسانه.

96 - ذمرت أصحابي: شجَّعتهم وحرَّضتهم.

97 - بعد لأي: بعد جهد ومشقة. استقدموا: اجترؤوا وتقدموا.

98 - هجهجنا به: صِحْنا به وزجرناه ليكف عنا.

99 - كر: هجم. مقشعراً بزبرة: منتفشَ الشعر الذي فوق كاهله وعنقه. شيهماً حولياً: قنفذاً ابن سنة.

100 - اختلج رجلاً: انتزعه من بيننا. أعجر: ضخماً عظيم البطن. ذا حوايا: صاحب بطن عظيم مستدير.

101 - تزايلت [منها]: أي تقطعت وتفرقت. مفاصله: أعضاؤه التي تصل المفاصل بينها.

102 - نهم: زأر زئيراً شديداً فيه غضب. فرفر: أكثر.

103 - زفر: تنفَّس تنفُّساً شديداً. بربر: هاج وأخرج صوتاً شديداً فيه غضب.

104 - جرجر: ردَّد الصوت في حنجرته.

ثُمَّ لَحَظَ[105]. فوالله لَخِلْتُ البَرْقَ يتطايَرُ من تحت جُفونِه، من عن شماله ويَمِيْنِه، فأُرْعِشَت الأيْدي[106]، واصْطَكَّت الأرجُلُ[107]، وأَطَّت الأضْلاعُ[108]، وارْتَجَّت الأسماعُ[109]، وحَمَّجَت العيونُ[110]، ولَحِقَت البُطُوْنُ[111]، وانْخَزَلَت الْمُتُوْنُ[112]، وساءَت الظُّنُوْنُ[113].

فقال عثمان: اسكت، قطع اللهُ لسانَك فقد رَعَبْتَ [قلوبَ] المؤمنين ![114].

من هو بديع الزمان الهمذاني؟

أول من ترجم لبديع الزمان ترجمة وافية أبو منصور الثعالبي (م429هـ) في كتابه (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر)[115]، وكان - فيما يبدو - قد لقيه وهو

105 - لحظ: نظر إلينا بمؤخرة عينه نظرة هياج وغضب.

106 - أرعشت: رجفت واهتزت من شدة الخوف والرعب.

107 - اصطكت: اضطربت وضربت الرُكبة بالركبة.

108 - أطت: سُمِع لها صوت قضقضة من الخوف.

109 - ارتجت الأسماع: لم تعد الآذان تميِّز الأصوات المختلطة من الذهول.

110 - حَمَّجت العيون: اتَّسَعَتْ وحدَّقت من الفزع الشديد.

111 - لحقت البطون: ضمرت والتصقت بالظهور من الخوف.

112 - انخزلت المتون: انقطعت فلم يعد الرجل منا يقيم صلبه وكاد يسقط.

113 - ساءت الظنون: كثرت الهواجس، وأخذ الرجال يتوقعون الأسوأ ويفكرون في الفرار.

114 - ونذكِّر، هنا، أن أقدم ظهور لنص أبي زبيد في صفة الأسد هو رواية ابن سلام هذه عن أبي الغراف، وهو شخص مجهول لم نعرف عنه سوى كنيته هذه. وثاني رواياتها عند أبي الفرج رواية عن ابن سلام في: الأغاني (دار)، 12/127-131. وثالثها رواية البصري في: الحماسة البصرية(تحقيق د. عادل سليمان جمال)، ص1504-1507 وذكر أن روايته عن أبي عمرو بن العلاء البصري، ولا ندري طريق الرواية عنه، وقد جاءت الروايتان الثانية والثالثة مع اختلافات طفيفة عن الرواية الأولى، وجوهر الحادثة الأصلية في حياة أبي زبيد مخالفة تماماً كما نرى لهذه الرواية.

115 - انظر هذه (اليتيمة)، طبعة مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1403هـ-1983م، الترجمة رقم (64)، 4/293-344.

شاب، وأخذ عنه كثيراً من المعلومات عن حياته، فضلاً عن تسجيل انطباعاته عن شخصيته، كما اهتم بوصف شكله الطبيعي وأخلاقه، إلى غير ذلك من الأمور. وقد شفع الثعالبي ترجمته بمقاطع نصية كثيرة من (مقاماته) و(رسائله) و(أشعاره).
وأخذ هذه المعلومات أو بعضها، عن الثعالبي، اللاحقون كلُّهم من أمثال ياقوت الحموي (م626هـ)[116]، وابن خَلِّكان (م681هـ)[117]، وغيرهما.

و(بديع الزمان) لقب أطلق على صاحب المقامات، نظراً إلى كثرة إبداعاته في ميداني النثر والشعر، ولأنه كما قال الثعالبي (كان صاحب عجائب، وبدائع، وغرائب)[118]. واسم بديع الزمان (أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد) وكنيته (أبو الفضل)[119]. وقد ولد في مدينة (هَمَذان) غربي إيران سنة 358هـ[120]، ولذا نُسِب إليها فقيل له (الهمذانيّ). ونشأ وترعرع فيها، وتلقى تعليمه في اللغة والأدب والدين والتاريخ وغيره على يد علمائها[121]، غير أنها ضاقت عن تحقيق طموحاته، فانطلق في مطلع

116 - انظر كتابه: معجم الأدباء (أو: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، طبعة د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993، الترجمة (78)، 1/234-253.

117 - انظر كتابه: وفيات الأعيان، طبعة د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الترجمة رقم (52)، 1/127-129.

118 - يتيمة الدهر، 4/293.

119 - وفيات الأعيان، 1/127.

120 - معجم الأدباء، 1/235.

121 - ومنهم أحمد بن فارس بن زكريا (ذكره الثعالبي في: اليتيمة، 4/294)، وذكره أيضاً مع عيسى ابن هشام الأخباري ياقوت في (معجم الأدباء، 1/234)، ولعل بديع الزمان استغلّ اسم أستاذه الأخير هذا، ليزعم أنه هو الذي كان يحدِّثه بالمقامات حين كان يفتتحها دوماً بقوله: (حدَّثَنا عيسى بن هشام قال:..)، ويوحي إلينا بـ (نا) هنا أنه واحد من جملة مستمعين لأحاديث عيسى. وقد جعله أحياناً بطلاً لبعض مقاماته، وأمَّا بطل الأحداث في غالبية المقامات فقد أطلق عليه اسم (أبي الفتح الإسكندري) نسبة إلى (إسكندرية العراق) لا (إسكندرية مصر)، وقد يكون أيضاً شخصاً عرفه بديع الزمان فعلاً معرفة

عشريناته من العمر في الآفاق الواسعة يتجول بين البلدان عارضاً خدماته التعليمية والكتابية والإبداعية على كبراء عصره من وزراء وأمراء وولاة وأثرياء، فكان من أبرز من انتجعهم وقال في ظلهم إسماعيل بن عباد المعروف بلقب (الصاحب بن عباد) (م385هـ) وزير البويهيين المشهور. وكان بديع الزمان يكتب لهم الرسائل، ويمدحهم بشعره، ويعلم أولادهم عن طريق نصوص المقامات، وكان يسلِّي أيضاً هؤلاء الكبراء وخاصَّةَ المثقفين والمتأدِّبين وعامَّتَهم بهذه المقامات التي لقيت رواجاً واسعاً وقبولاً حسناً لديهم جميعاً في العصر وبعده. وقد درَّت عليه مواهبه وخدماته رزقاً وفيراً وجنى منها ثروة كبيرة.

وهكذا اشتهر بديع الزمان، في إبداعاته الأدبية، حصراً، بنوعين نثريين هما (المقامات) و(الرسائل) وبجنس أدبي هو (الشعر)، وذكر ذلك ابن خلكان فقال عنه إنه (صاحب الرسائل الرائقة، والمقامات الفائقة) و(له الرسائل البديعة، والنظم المليح)[122].

وأمَّا صفاته الشخصية فمن أبرزها أنه كان حاد الذكاء، حاضر البديهة، سريع الحفظ، واسع الاطلاع، سريع الكتابة في الشعر والنثر، نشيطاً، كثير التجوال في الآفاق، ومن طبعه سرعة التأقلم مع محيطه يتلون تلون الحرباء، وكان يجيد إلى جانب العربية اللغة الفارسية لقول الثعالبي إنه (كان يترجم ما يُقْتَرَح عليه من الأبيات الفارسية، المشتملة على المعاني الغريبة، بالأبيات العربية)[123]، وترجمة الشعر بالشعر

شخصية في حياته، وقد يكون متمتعاً بالصفات النمطية التي نراها فيه من خلال المقامات، وربما كانت فيه بعض صفات بديع الزمان الشخصية نفسها من حيث الذكاء، وحضور البديهة، وسعة الثقافة، وبراعة القول والتعبير أو خصب الخيال، وطلاقة اللسان.

122 - وفيات الأعيان، 127/1و128.

123 - يتيمة الدهر، 294/4.

من القدرات النادرة عند الشعراء[124]. كما ذكر أنه كان (مقبولَ الصورة، خفيفَ الروح، حسنَ المعشر،.. حُلْوَ الصداقة، مُرَّ العَداوة)[125].

وانتهى المطاف ببديع الزمان إلى (هَرَاة)، من أرض أفغانستان اليوم، فحط بها عصا الترحال بقية عمره، وتزوج من ابنة أحد أعيانها الأثرياء، وعاش في أهنأ عيش وجمع إليه شمل أهله، حتى وافته المنية في الأربعين من عمره سنة 398هـ[126]. ولم يذكر الثعالبي ولا ياقوت سبب وفاته المبكرة هذه، غير أن ابن خلكان ساق روايتين في السبب: إحداهما تقول إنه مات مسموماً[127]، ولم يُفصِح لماذا وكيف ؟ وثانيتهما تروي (أنه مات من السكتة، وعُجِّل دفنه، فأفاق في قبره، وسُمِع صوته بالليل، وأنه نُبِش عنه، فوجدوه قد قبض على لحيته ومات من هول القبر)[128].

كانت (المقامات) التي اخترعها بديع الزمان أهم هذه الإبداعات في نشر صيته وإضرام شهرته بين معاصريه وعبر القرون إلى يومنا هذا. وقد بلغت في تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد - رحمه الله تعالى - إحدى وخمسين مقامة[129]، وهذا العدد مخالف لما ذكره الثعالبي مخالفة شاسعة، فقد ذكر أن بديع الزمان، حين وافى (نيسابور) سنة 382هـ، أي بعد سنتين من مغادرته موطنه (همذان)، وكان لا يزال بعدُ في الرابعة والعشرين من العمر، قد (أملَى أربعمئة مقامة نَحَلَها أبا الفتح

124 - نذكر من ذلك، في العصر الحديث، ترجمة الشاعر (أحمد رامي) رباعيات الخيام من الفارسية إلى العربية شعراً، وقد نشرها في القاهرة سنة1924 ، وكذلك ترجمة الشاعر (أحمد الصافي النجفي) إياها شعراً أيضاً.

125 - يتيمة الدهر، 294/4.

126 - المصدر السابق، 295/4 ومعجم الأدباء، 234/1.

127 - وفيات الأعيان، 129/1.

128 - المصدر نفسه.

129 - انظر طبعتها الأولى سنة 1923، والثانية سنة 1962 (مكتبة محمد علي صبيح بمصر).

الإسكندري في الكُدْيَة وغيرِها، وضمَّنها ما تشتهي الأنفُس وتَلَذ الأعين)[130]. وهذا العدد مبالغ فيه مبالغة شديدة ولا يثبت للنقد والتمحيص بحال من الأحوال، وذلك لعدة أسباب: منها أن بديع الزمان كان لا يزال صغير السن لينتج 400 مقامة وهو في سن الرابعة والعشرين، ومنها استحالة إنتاج هذا العدد في مدة قصيرة وفي مكان واحد، ومنها أنه لا يمكن أن تمضي 16 سنة من عمره بعدها من غير أن ينتج مقامة واحدة، ومنها أن مقاماته لقيت استحسان معاصريه واهتمامهم بها وكان هو جامعها ومدونها، وكانت بمنزلة رأسماله الذي جلب له الحظ السعيد، فكيف يمكن أن يضيع منها سبعة أثمانها (أي نحو 350 مقامة) ولا يحتفظ هو أو معجبوه أو الرواة من بعدهم بغير ثمنها (أي بـــ 51 مقامة فقط)؟ ومما يؤكِّد أن العدد الأخير هو العدد الصحيح لمقاماته أن من تأثروا به وقلدوه بكتابة مقامات قد وقفوا في عدد مقاماتهم عند هذا العدد: فالحريري (م516هـ) مثلاً وقف في مقاماته عند العدد 50 فقط[131]، كما أن الزمخشري (م538هـ) كتب خمسين مقامة فقط[132]، وكأن هذا العدد أصبح عدداً تقليدياً عند أصحاب المقامات، وهذا يؤكِّد أن مقامات بديع الزمان كانت في الحقيقة والواقع إحدى وخمسين مقامة فقط لا أربعمئة.

130 - يتيمة الدهر، 294/4.

131 - يقول الحريري: (وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة، وفطنة خامدة.. خمسين مقامة)، انظر: مقامات الحريري، طبعة دار صادر، بيروت، ص12.

132 - انظر: مقامات الزمخشري، في طبعتها الأولى بالمكتبة الأزهرية بمصر سنة 1325هـ، وطبعتها الثالثة في دار الكتب العلمية، بيروت، 1425هـ-2004م، فقد ذكر الناشر الأخير (ص5) أن الكتاب (يحتوي على خمسين مقامة)، كما ذكر من تولى كتابة خطبة الكتاب من القدماء (ص13-14) أن الزمخشري (حين أتاح الله له الصحة.. انتدب للرجوع إلى رِئاسِ عمله في إنشاء المقامات حتى تمَّمها خمسين مقامة).

نص (المقامة الأسدية) لبديع الزمان:

نورد هنا الشطر الأول من هذه المقامة، وهو الشطر الموازي لـــ (صفة الأسد) عند أبي زبيد الطائي:

حدَّثَنا عيسى بن هشام قال:

كان يَبلُغُني من مَقاماتِ الإسكندري ومقالاته ما يَصْغَى إليه النَّفُورُ، ويَنْتَفِضُ لهُ العُصْفُورُ[133]، ويُرْوَى لنا من شِعْرِهِ ما يمتزِج بأجزاء النفس رِقَّةً، ويَغْمُض عن أوهام الكَهَنَةِ دِقَّةً، وأنا أسأل اللهَ بقاءَه، حتى أُرْزَقَ لقاءَه، وأتعجَّب من قُعود همَّته بحالته، مع حُسْنِ آلته، وقد ضرب الدهرُ شؤونَه، بأسدادٍ دونَه[134]، وهَلُمَّ جَرًّا، إلى أن اتَّفَقَتْ لي حاجةٌ بحِمْصَ، فشحذتُ إليها الحِرْصَ، في صُحبَةِ أفرادٍ كنجوم الليل، أحلاسِ لظهور الخيل[135]، وأخذْنا الطريقَ ننتَهِب مَسافتَه، ونستأصِل شافتَه[136]، ولم نزل نَفْري أَسْنِمَةَ النِّجاد[137]، بتلك الجِياد، حتى صِرْنَ كالعِصِيّ، ورَجَعْنَ القِسِيّ[138]، وتاحَ لنا وادٍ في سفح جبَل[139]، ذِي أَلاءٍ [140]وأَثَل[141]، كالعذارَى يُسَرِّحْنَ الضَّفائِر، ويَنْشُرْنَ الغَدائِر،

133 - يصغى إليه: يميل، من (صَغِيَ). النفور: الميال إلى سرعة الابتعاد عن الشيء كرهاً له.

134 - ينتفض له: يريد هنا أنه يهتز له طرباً وإعجاباً.

135 - أسداد: جمع سَدّ، يريد أن ظروف الحياة حالت بينه وبين لقاء الإسكندري.

136 - يعني أنهم ملازمون لظهور الخيل من كثرة الأسفار ومتعودون على ركوبها، جمع حِلْس.

137 - الشأفة: أصل الشيء وجذره، وسهل الهمزة لتوافق آخر القرينة السابقة ويحلو وقعها في الأذن، وعبارته كناية عن سيرهم السريع على الطريق وكأنما يهمون باقتلاعه وصولاً إلى غايتهم.

138 - نفري: نقطع. الأسنمة: جمع سَنام، وهو حَدْبَة البعير. والنجاد: مرتفعات الأرض وتلالها، مفردها نجد. وقد كنى بالعبارة عن سرعة اجتيازهم لتلك النجاد وشدته على الأرض.

139 - كنى بالقرينة السابقة عن شدة هزال الخيل نتيجة سيرها الشديد الذي ذكره، ثم أكد ذلك بالقرينة الثانية، ليبالغ في تصوير شدة تعب راكبيها تبعاً لذلك وحاجتهم إلى الراحة.

140 - تاح لنا: تهيَّأ.

141 - الألاء: نوع من الشجر دائم الخضرة جميل المنظر، واحدته أَلاءَة. والأَثْل (وحرِّك الثاء في المتن لضرورة الازدواج): نوع عظيم من الشجر مستقيم الجذع، متهدِّل الأغصان، واحدته أَثْلَةٌ، ويتخذ من خشبه القصاع والأقداح، ومنه اتُّخِذ منبر رسول الله (ص)، ويكني العرب بنحت الأثلة عن محاولة التقليل من شأن القوم.

ومالَتْ بنا الهاجِرَةُ إليها[142]، ونزلنا نُغَوِّر ونَغُور[143]، وربَطْنا الأفراسَ بالأمراس، وملْنا مع النُّعاس، فما راعَنا إلا صَهِيْلُ الخيل، ونظرتُ إلى فرسي وقد أرهَف أُذُنَيْه، وطَمَح بعينَيْه، يَجُذُّ قُوَى الحبلِ بمشافِره[144]، ويَخُدُّ خَدَّ الأرض بحوافره[145]، ثم اضطربت الخيل فأرسلت الأبوال، وقطَّعَت الحِبال، وطار كلُّ واحد منا إلى سلاحه، فإذا السَّبُعُ في فَرْوَة الموت، قد طلَع من غابِه، مُنْتفخاً في إهابِه[146]، كاشِراً عن أنيابِه، بطَرْف قد مُلِئَ صلَفاً[147]، وأَنْف قد حُشِيَ أَنَفاً[148]، وصدرٍ لا يَبْرَحُه القلبُ[149]، ولا يسْكُنه الرُّعْبُ. وقلنا: خَطْبٌ مُلِمٌّ [150]، وحادِثٌ مُهِمٌّ[151]. وتَبادَرَ إليه من سُرْعانِ الرُّفْقَة فتىً[152]:

أخضرُ الجِلْدَةِ في بيتِ العَرَبْ يَمْلأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَبْ[153]

بقلبٍ ساقَه قَدَر، وسيفٍ كلُّه أَثَر، ومَلَكَتْه سَوْرَةُ الأسَد[154]، فخانته أرضُ قدمِه، حتى سقَط ليدِه وفَمِه، وتجاوز الأسدُ مصرعَه، إلى مَنْ كان معَه، ودعا الحَيْنُ أخاه[155]، بمِثْلِ

142 - لعله أراد (إليه) أي الوادي، فذهب به البال (إليها) أي شجرات الألاء والأثل. الهاجرة: شدة الحر في منتصف النهار.
143 - نغوِّر : نُقَيِّل. ونغُور: نأخذ إغفاءة للراحة.
144 - يجذّ: يقطع. المشافر: للخيل كالشفتين للإنسان.
145 - يخدّ: يشق.
146 - إهابه: جِلْده.
147 - الطرف: العين. الصلف: التكبُّر.
148 - الأنَف: حَمِيَّة.
149 - يرى العرب أن الشجاع لا يغادر قلبُه موضعَه عند الخوف، أما الجبان فيغادره.
150 - خطب ملم: مصيبة حلَّت بنا.
151 - مهم: يبعث الهمَّ ويشغل البال.
152 - سرعان الرفقة: الذين سارعوا لمواجهة خطر الأسد. تبادر إليه فتى: أي سبقهم إليه في سرعة المواجهة.
153 - أخضر الجلدة: أسمرها. إلى عقد الكرب: إلى الموضع الذي يكاد يمتلئ فيه تماماً.
154 - يريد بالعبارة أن سطوة الأسد استولت عليه.
155 - الحين: الهلاك.

ما دعاه، فصار إلَيْه، وعقَل الرُّعْبُ يدَيْه[156]، فأخَذ أرضَه، وافترش الليثُ صدرَه، ولكني رميتُه بعِمامَتي، وشغَلتُ فَمَه، حتى حقَنْتُ دَمَه، وقام الفتى فَوَجَأَ بطْنَه[157]، حتى هلك الفتى من خوفِه، والأسدُ للوَجأةِ في جوفِه، ونهضنا في أثَر الخيل، فتألَّفْنا منها ما ثَبَت، وتركْنا ما أفلَت، وعُدْنا إلى الرفيقِ لنُجهِّزَه:

فلَمَّا حَثَوْنا التُّرْبَ فوقَ رفيقِنا جَزِعْنا ولكِنْ أيُّ ساعةِ مَجْزَعِ

وهنا تنتهي مأساة السَّفْر مع الأسد، ليبدأ بديع الزمان في سرد مجريات ما حدث لهم، مع فتى داهية ظهر لهم فجأة في الطريق، وهذا الشطر الثاني لا يهمنا في المقارنة مع وصف أبي زبيد للأسد، لأن الخليفة أوقفه دون إكمال ما جرى للسَّفر معه، ولو تركه يكمل ما بدأه لجاءنا نص بديع من نثره، ولاكتملت صورة الحدث والتناص بين النصين اللذين سقناهما آنفاً.

مستويات التناص بين النصين:

يعيد المرء بعد عرض النصين آنفاً طرح التساؤل الذي بدأنا به في مطلع البحث عما إذا كان نص أبي زبيد هو الذي فتح عيون بديع الزمان على نوع جديد من الأنواع النثرية في أدبنا، كان في حاجة إلى شيء يسير من التطوير والإضافة حتى يأخذ شخصيته النوعية المستقلة والجديدة في هذا الأدب؟ أو بتعبير أدق: هل استلهم بديع الزمان فن المقامات من نص أبي زبيد هذا؟ وهل كانت المقامة الأسدية أولى مقامات بديع الزمان؟

لا شك في أن الحكم بحصول الاستلهام أو كون هذه المقامة هي أولى مقاماته أمر ليس بالأمر اليسير، غير أننا نلتمس هنا بعض التأثيرات التي خلفها نص المتقدم

156 - عقل: قيَّد.

157 - وجأ بطنه: ضربه فبقره.

في نص المتأخر ، وهي تتمثل بتلك الخيوط التي تبدو بوضوح في نسيج النص الجديد، وهو ما وصفناه بالتناص، الذي يعني لدينا ارتباط المحدَث بالقديم من خلال المخزون الثقافي واستطالة القديم في الجديد من غير الانبتات عنه تماماً كما هو حاصل في كثير من نصوص حاضرنا المعاصر.

لا أحد، من حيث المبدأ، ممن يقرؤون مقامات بديع الزمان أو يعرفون ترجمة حياته أو سيرته الذاتية وصفاته، إلا ويحكم بأنه رجل حاد الذكاء يفيد من كل ما يسمع أو يرى أو يقرأ في حياته، ويوظِّفه في نصوصه النثرية أو الشعرية، فذهنه الإبداعي لاقطٌ ممتاز لمصادر الإلهام وطرائق الإبداع، ومحلِّلٌ لها أفضل تحليل، ومستنبطٌ منها أجود الاستنباطات، وهذا مما لا شك فيه، أي أن الشرط النفسي (أو البيئة الشخصية أو التربة الإبداعية عنده كانت مهيأة لتقبل بذرةٍ مرت عليها قرون من غير أن تتوافر لها البيئة الحاضنة أو الشروط الملائمة لإنتاشها ونموها وازدهارها وإثمارها)، حتى كان بديع الزمان باستعداداته التكوينية والفطرية هو تلك التربة الإبداعية المناسبة لتحولات تلك البذرة من خلال تطويرها الرائع الذي خلق منها هذا النوع النثري الجديد في أدبنا.

وإذا كان كثيرون من المبدعين لا يصرحون لنا بمصادر إلهامهم، فإن الحريري، تلميذ بديع الزمان صرح لنا بذلك حين كتب في مقدمة مقاماته يقول بكل صراحة وتواضع: (أشار مَنْ إشارته حُكْم، وطاعتُه غُنْم، إلى أن أنشِئ مقاماتٍ أتلو فيها تِلْوَ البديع، وإنْ لم يُدْرِكِ الظالِعُ شأوَ الضليع)[158]، ثم يبيِّن أن (الفضل للمتقدِّم) فيقول: (مع اعترافي بأن البديع - رحمه الله - سبَّاقُ غاياتٍ، وصاحبُ آياتٍ، وأن المتصدِّي بعده لإنشاء مقامة.. لا يغترِف إلا من فُضالتِه)[159]. ثم يأتينا بعدد من الأدلة

158 - مقامات الحريري، ص11 والظالع: الأعرج. والضليع: المتمكن من الأمر.

159 - المصدر السابق، ص13.

القاطعة على التناص بينه وبين بديع الزمان، منها اثنان في قوله: (.. مِمَّا أمليتُ جميعَه على لسان أبي زيد السَّرُوجِيّ، وأسندتُ روايته إلى الحارث بن هَمَّام البِصْري)[160]، في مقابل بطل مقامات بديع الزمان (أبي الفتح الإسكندري)، وراويتها (عيسى بن هشام). ومنها عدد المقامات الذي ذكرناه من قبل، ومنها تضمين كل منهما المقامات أشعارهما الخاصة، ومنها استعمال مبدأ الكدية والحيلة في بناء الحدث، ومنها استعمال الغريب، والسجع، وأشكال البديع والبيان المختلفة، ومنها استهلال الحريري كل مقامة بقوله: (حكى..أو روى.. أو أخبر.. أو حدَّث الحارثُ بنُ هَمَّام قال:..) على نمط استهلال بديع الزمان (حدَّثنا عيسى بنُ هشام قال:..)، ومنها طريقة تسمية المقامات، إلى غير ذلك من مستويات التناص: فما مستويات اللقاء والتشابه والمماثَلَة أو المقارَبة، أي مستويات التناص بين نص بديع الزمان ونص أبي زبيد ؟ إن البحث في ذلك يكشف لنا المستويات التالية:

أولاً- مستويات التناص العامة:

ونعني بالمستويات العامة، هنا، تلك التي تكون مشتركة بين مجموعة تكثر أو تقل من النصوص النثرية عموماً، من أمثال:

1) الموضوع (وصف رحلة وحادثة): أمَّا وصف الرحلة فهو يرد في القصائد الجاهلية، ويكون تمهيداً لغيره، وهو هنا (وصف الأسد) في هذين النصين، كما يتردَّد على ألسنة المنتجعين، والتجار، والرحالة، والمغامرين، وجوابي الآفاق، فهذا الوصف ليس حكراً إذن على النصين وحدهما في النثر، بل يتعداهما إلى كثير من النصوص الشعرية أيضاً.

160 - المصدر السابق، ص12-13 وقد نسَبَه إلى (سَرُوج)، وهي بلدة قرب (حرَّان)، وقد ذكرها على لسان أبي زيد في (المقامة المراغية) رقم (6)، ص58 في شعر يقول فيه:

غَسَّان أُسْرتِيَ الصَّميمَهْ وسَرُوجُ تُربَتِيَ القَدِيْمَهْ

2) استعمال مذهب (السجع): وهو مذهب عريق في النثر الأدبي العربي، ضارب جذوره فيه منذ أقدم أزمان الجاهلية، وقد استعمل في جملة كبيرة من النصوص النثرية، لأنه كان بمنزلة القافية في الشعر، وقد اتبعه عدد كبير من الناثرين القدماء إلى مطلع النهضة الحديثة.

3) استعمال مذهب (الغريب): وهو مذهب اتبعه بعض الشعراء والناثرين العرب إمَّا لغاية تعليمية، وإمَّا لإثبات قدراتهم اللغوية وسعة اطلاعهم، وإمَّا للتباهي وإثبات التفوق على الآخرين. ولكن استعمال أبي زبيد هذا الغريب جاء طبيعياً مناسباً للغته التي يستعملها، إلا أن بديع الزمان كان يستعمله تكلفاً لغاية التعليم والاستعراض والتباهي وإثبات التفوق معاً، ولم يكن عفو الخاطر.

4) الطريقة السردية: ونلاحظ أن كثيراً من نصوص النثر الأدبي العربي تأخذ بهذه الطريقة في القصص، والحكايات، والنوادر، والنكت، وغيرها، والسردية من أوسع ما في أدبنا انتشاراً وأكثره نصوصاً بشكليها الشفوي والمكتوب.

5) استعمال الظواهر الأسلوبية اللفظية أو (البديعية): على كثرتها.

6) استعمال الظواهر الأسلوبية المعنوية أو (البيانية): وهي كثيرة.

ثانياً- مستويات التناص الخاصة:

وهذه المستويات الخاصة للتناص هي التي تثبت بالدليل القاطع تلك الصلة القوية بين النصين، وتبرز تفاصيل التأثير الذي تركه النص المأخوذ منه في النص الآخذ. ويمكن أن نستنبط ذلك من التناص اللفظي (أو المعجم اللغوي)، والتناص السياقي أو (التساوقي)، والتناص النفسي، والتناص في الصورة الفنية:

1) التناص اللفظي (أو المعجم اللغوي):

نلاحظ جملة من الألفاظ التي جاءت مشتركة بين النصين تتضح من الجدول الآتي:

	عند أبي زبيد	عند بديع الزمان
1-	غوِّروا بنا	ونزلنا نغوِّرُ ونغور
2-	وإذا واد قديديمتنا	وتاحَ لنا واد
3-	صَرَّ أقصَى الخيل أُذُنَيه	وقد أرهفَ [فرسي] أُذُنَيه
4-	يَجُذُّ [الفرسُ] قوى الحبل بمشافره	فمن نافرٍ بشكاله وناهضٍ بعقاله
5-	فتضعضعت الخيل	ثم اضطربتِ الخيل
6-	حمحم [أقصى الخيل] فبال	فأرسلت [الخيلُ] الأبوال
7-	ففزِع كلُّ امرئ منا إلى سيفه	وطار كل واحد منا إلى سلاحه
8-	لصدره [أي الأسد] نحيطٌ	وصدرٍ لا يَبرَحه القلبُ
9-	ولطرفه [أي الأسد] وميضٌ	بطَرْفٍ قد مُلِئ صَلَفاً
10-	وكشر [الأسد] فأفرج	كاشراً عن أنيابه
11-	ما اتقيناه إلا بأول أخٍ لنا = فافترسه الأسد، وانتزع آخر فوقع ضحية له؟	وتبادر إليه من سُرْعان الرُّفْقَة فتى= صرعه الأسد ولم يقتله، وواجهه آخر فمات رعباً بعد أن أصاب الأسد إصابة بالغة في جوفه فقتله.

نلاحظ هنا أن مجموعة من الألفاظ التي وردت عند أبي زبيد تتكرر بذاتها أو يتكرر قريبٌ منها في التعبير عن النزول ومجريات ظهور الأسد والأحداث التي رافقته والتأثيرات التي أحدثها في الحيوان (الخيل، الإبل، البغال) عند أبي زبيد، و(الخيل) فقط عند بديع الزمان من جهة، وفي الإنسان من جهة ثانية. ولو وجدنا نموذجين متشابهين إلى هذه الدرجة في مفردات المعجم اللغوي الاسمية والفعلية والتركيبية أحياناً في وصف أمر واحد لحكمنا على المتأخر بأنه سرق وصفه من المتقدم، ولَمَّا كنا ننكر مصطلح (السرقة) أصلاً، لأنه غير دقيق، ولا نظن أن أحداً من الشعراء أو الناثرين يقبل على نفسه أن يقال عنه إنه سارق أو معتمد في جوهر عمله على آخر، ولأن تسرُّب التأثيرات أمر جد طبيعيٍّ في آداب اللغة الواحدة، فإننا نذهب إلى وجود تناص بين الناثرَيْنِ في هذا الوصف. وأكبر دليل يمكن أن نسوقه على صحة هذا التناص (التسلسل) في ورود مفردات المعجم اللغوي الذي ذكرناه

مقارَنا بين النصين مما لا يمكن أن يأتي عفو الخاطر أو بالمصادفة بتاتاً. وهذا يؤكد باختصار أن بديع الزمان كان شديد التأثر بوصف أبي زبيد لتعرض أسد له ولمن معه من المسافرين.

2) التناص السياقي (أو التساوقي):

يتعلق هذا النوع من التناص برسم الشخصيات وتصوير الأماكن ووصف الأحداث والأجواء المحيطة والظروف القائمة، وقد جاء متمثلاً في عدد من النقاط من أبرزها:

السياق	عند أبي زبيد	عند بديع الزمان
(1) الثناء على رفاق السفر:	في صِبَّابة أشراف من أفناء العرب ذويَ هيئة وشَارة حسنة	في صحبة أفراد كنجوم الليل، أحلاسِ لظَهور الخيل
(2) تحديد غاية السفر:	ملك الشام الغساني	مدينة حمص بالشام
(3) وصف مشاق الطريق:	وصف للحر الشديد وشدة العطش وأثرهما	الهزال الشديد من طول المسير من أثر الهاجرة
(4) تصوير جمال الوادي:	ذكر كثرة الأشجار، والظلال، والخضرة، ووفرة المياه، والطيور	ذكر كثرة الأشجار وتشبيه أغصانها وأوراقها المتهدلة بغدائر الحسناوات المسترسلة
(5) تصوير سلوك رفاق السفر عند النزول في الوادي:	ذكر حط الرحال في الظلال [ومنها طبعاً ربطها ضمناً] وتناول الطعام والشراب.. والغاية الاستراحة وإراحة تلك الرحال	ذكر ربط الخيل والنوم [ولا بدَّ ضمناً من تناول الطعام والشراب قبل ذلك تعويضاً عما أصاب القوم من تعب وهزال والغاية طبعاً الاستراحة وإراحة المطايا
(5) تصوير شعور الحيوانات بالخطر وردود فعلها الغريزية:	إرهاف السمع - فحص الأرض بالرجلين- الحمحمة- الاضطراب - إرسال البول من الخوف - محاولة قطع الحبال والهروب	صهيل - إرهاف السمع - فحص الأرض بالرجلين - الاضطراب - إرسال الأبوال - محاولة قطع الحبال للهروب
(6) تصوير انتقال حالة الفزع من الخيل إلى رفاق الرحلة حين أدركوا ظهور الأسد لهم:	الإسراع إلى حمل السلاح وسلّه لاتقاء الخطر يداً واحدة	الإسراع إلى حمل السلاح لاتقاء الخطر يداً واحدة
(7) التصوير المرعب للأسد:	بالغ جداً في وصفه المرعب وبالتفصيل	وصفه بصفات مرعبة ومجملة

(8) تصوير المواجهة ونتيجتها:	يقتل رجلاً ويلغ في دمه ثم يخطف آخر فيقضقض متنيه ويقتله.. وأراد أبو زبيد أن يمضي في وصفه المرعب إلا أن الخليفة أسكته لما رأى الرعب على وجوه الحاضرين وكأنما الأسد يريد الانقضاض عليهم.. وتبقى نهاية المواجهة غير معروفة.. أي أنها تبقى مفتوحة إلى يوم القيامة..	يصرع الأسد رجلاً أرضاً من غير أن يقتله ويتجاوزه إلى آخر فينقذه أبو الفتح من تحته فينهض الرجل ويطعن الأسد طعنة تقتله إلا أن هذا الرجل يموت من شدة رعبه بعد تلك الطعنة.. فيدفنه صحبه قبل المضي في رحلتهم.. ليبين لنا بديع الزمان ظهور خطر أعظم من خطر الحيوان هو خطر الإنسان إذا فقد القيم والمبادئ الإنسانية..

ونلاحظ في سرد هذا السياق أن حالتي الرحلتين وظروفهما والأماكن ومجريات الأحداث فيها وشخوصها ونتائجها تكاد تكون واحدة، فضلاً عن أن التعبير عنها ووصفها يكاد يكون متقارباً جداً، وأهم من ذلك كلّه أن التسلسل في ذكر الأماكن وسرد الأحداث ووصف سلوك الإنسان والحيوان يكاد أن يكون واحداً أيضاً.. مع خلاف يسير في النهاية بسبب إسكات الخليفة أبا زبيد عن متابعة سرده.. وامتلاك بديع الزمان ناصية حريته في رسم النهاية التي وظفها في خدمة غايته الفلسفية التي أراد أن يصل إليها أو يعبّر لنا عنها.. وإن دلَّ ذلك على شيء فإنما يدلُّ على اطلاع بديع الزمان على نص أبي زبيد وعمل الشطر الأول من نصه على شاكلته.. في تناص واضح لا يمكن إنكاره بأي حال..

3) التناص النفسي:

لو تتبعنا في النصين الأحوال النفسية التي مر بها المسافرون لوجدنا نوعاً من التوازي بينهما، فضلاً عن عنصر التسلسل الذي لمسناه آنفاً في التناص اللفظي أو المعجمي، وفي التناص السياقي، وهذا ما يرسخ التناص أكثر فأكثر بين النصين، ونورد هنا صورة هذا التناص النفسي:

عند أبي زبيد	عند بديع الزمان
التفاؤل والنشاط في بداية الرحلة	التفاؤل والنشاط في بداية الرحلة
↓	↓
الشعور بالتعب ووطأة الجوع والعطش	الشعور بالتعب ووطأة الحر والنعاس
↓	↓
ارتياح القوم للوادي المشجر والظليل	ارتياح القوم للوادي المشجر والظليل
↓	↓
الفزع والخوف الشديد من ظهور الأسد	الفزع والخوف الشديد من ظهور الأسد
↓	↓
إظهار الشجاعة ووقوع ضحيتين	إظهار الشجاعة ووقوع ضحية
↓	↓
الحزن على الضحيتين	الحزن على الضحية
↓	↓
...	انفراج أسارير القوم

هل ينطبق على هذين النصين رأي القاضي الجرجاني من أنه قد يحدث أن يقول الشاعر بيتاً يوافق معناه، من قريب أو بعيد، معنى بيت لمتقدم (مع أن ذلك البيت لم يقرع قط سمعه، ولا مر بخلده)[161]- علماً أن المسألة هنا لا تتعلق ببيتٍ شعري وإنما بنص نثري - أم أن هذه التقلبات المتشابهة مؤشِّرٌ واضح وأكيد إلى أن التناص واقع حقيقة بينهما من خلال ما أحدثه نص أبي زبيد في نفس بديع الزمان الناثر، وذلك لأن إبداع نص بهذا الطول لا يمكن أن يقع الاتفاق فيه عفو الخاطر أو من باب توارد الخواطر أو وقع الحافر على الحافر ؟

161 - انظر كتابه: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص52.

4) التناص في الصورة الفنية:

باستعراض ما ورد في النصين من صور فنية نجد عدداً متشابهاً أو متقارباً على الأقل من هذه الصور بين النصين.

(1) صورة الحر والهزال:

من تلك الصور عند أبي زبيد صورة مبالغ فيها للحر الشديد الذي عانى منه رفاق الرحلة، ومهد له بأن المسير كان في (حمَّارة القيظ)، وندركه من خلال منعكساته أو آثاره الكثيرة الناجمة منه، وظهرت نتائجها على الإنسان والحيوان والطيور والحشرات والمياه والرمال والحصى على حد سواء، لما يبعث عليه هذا الحر من ضيق وتعب وعطش وجفاف.. وذكر من هذه الآثار:

أ- جفاف الريق

ب- ذبول الشفاه

جـ- جفاف الماء في الطبيعة

د- التهاب الحصى في الأرض الوعرة

ه- ظهور السراب متلألئاً في الأفق

و- ارتفاع صرير **الجنادب**

ز- اضطرار **العصافير** إلى النزول في ضيافة **الضِّباب** في جحورها لتوافر الظل أو المكان الأدنى حرارة.. وهو التصرف الذي لا تفعله العصافير في الظروف الاعتيادية.

وقابل هذه الصورةَ عند بديع الزمان صورةٌ لنتيجة قريبة منها بسبب طول المسير واجتياز المسافات التي مر بها رفاق السفر على النجاد والسهول، وهو الأمر الذي سيؤدي بطبيعة الحال إلى المعاناة من الحر والتعب والعطش.. ونلمس ذلك في

قوله واصفاً شدة الهزال الناجم من ذلك: (ولم نزل نفري أسنمة النجاد، بتلك الجياد، حتى صِرْنَ كالعِصِيّ، ورجعنَ كالقِسِيّ)، ولا شك في أن هذه المبالغة في وصف شدة هزال الخيل تشمل هزال رفاق السفر وحيواناتهم الأخرى أيضاً، وهي تقابل المبالغات التي رأيناها في صورة أبي زبيد التي أشار فيها إلى هزال جزء من الإنسان وأراد الكل وهو (ذبول الشفاه)، الذي يمثل حتماً ذبول سائر جسده، والذي يكون متوازياً كذلك مع هزال إبل القوم وخيلهم وبغالهم.

(2) صورة الوادي الممرع الظليل وتحقُّق الأضداد:

تظهر هذه الصورة عند أبي زبيد ظهوراً مجملاً وموحياً، ولكنها تبيِّن لنا أنها تلبي حاجة رفاق الرحلة الماسة إلى استعادة نشاطهم وحيويتهم هم وحيواناتهم، للتعويض عما عانوا منه طوال الرحلة، وقد جسَّد ذلك في ظهور الحالات الضدية لما كان عليه رفاق الرحلة في مسيرهم الشاق: فالحر تزيله عنهم هذه الظلالُ الوارفة للأشجار الكثيرة كثيفة الأغصان وتلك الرطوبةُ أو الطراوة العذبة المنبعثة من الوادي بين الأشجار. والتعب تزيله الراحةُ بالتمدد والاستلقاء والنوم. والعطشُ يزيله الماء الوفير والبارد في هذا الوادي. والجوع يزيله الطعامُ الذي بسطوه أمامهم. وأمَّا مناظر الجفاف والتصحر والقبح على طول الطريق فقد عوضتهم عنها خضرةُ الأشجار وجمال طلعتها. وأمَّا صرير الجنادب فقد عوضهم عنه تغريدُ الطيور وزقزقة العصافير على أغصان الأشجار فيه. كما أن نفوس القوم، الذين كانوا صامتين في أكثر أوقات الرحلة، قد ارتاحت بتجاذب أطراف الحديث فيما بينهم، لقد انبعثت فيهم الحياة من جديد..

ويأتي بديع الزمان بصورة مماثلة، إلا أنها كانت أكثر اقتضاباً، ولكنها تتيح لخيال السامع أو القارئ أن يتصوَّر ما صوَّره أبو زبيد مما يترتب على هذه الصورة المجملة من تفاصيل مرغوبٍ فيها تلبي حاجة رفاق السفر إلى التعويض عما أصابهم

من أنواع المعاناة في رحلتهم، كما أن بديع الزمان التفت إلى صورة الجمال في هذا الوادي، وذهب خياله فيه إلى نوع من الجمال عند المرأة حين لاحظ تهدُّل أغصان الأشجار وأوراقها فذهب إلى أن هذه الأشجار (كالعذارَى يُسرِّحنَ الضفائر، وينشُرنَ الغدائر)، وهذه لفتة إيروسية ذاتية واضحة عند بديع الزمان. وقد نظر أبو زبيد نظرة جمالية إلى هذا الوادي وأشجاره، ولكن من زاويةِ روعة المنظر في النفس، ومن حيث البرودة، وجمال الأصوات، فكانت نظرته أوسع وأكثر موضوعية.

(3) صورة الفزع من ظهور الأسد:

كان أول من تنبَّه على ظهوره في النصين حيوانات القوم (الخيل والإبل والبغال عند أبي زبيد) و(الخيل عند بديع الزمان)، وكانت ردات فعل الخيل خاصة متشابهة إلى حد بعيد في النصين ما بين إرهاف سمعٍ أو صر أذنين وصهيلٍ أو تحمحمٍ وإرسال أبوالٍ وفحصٍ بالرجلين واضطرابٍ في الحركة ومحاولةِ قطع القيود وجذ الحبال والهرب أو محاولة الهرب من شدة الفزع.. وأمَّا القوم فقد كانت ردات فعلهم - في النصين - واحدة تتمثل في الهرع إلى أسلحتهم وسلها أو إشهارها، والتداعي لمواجهة هذا الأسد صفاً واحداً أو متفرقين.. وعلى عجل..

(4) صورة الأسد المرعبة:

رسم كل من أبي زبيد وبديع الزمان صورة مرعبة جداً للأسد في أثناء ظهوره وخلال تقدمه وعند عزمه على الانقضاض، غير أن صورة أبي زبيد كانت أكثر تفصيلاً، وأدق تصويراً، لأنه وقف عند كثير من أعضائه (كالصدر، والبلاعيم، والطَّرْف، والأرساغ، والهامة، والخد، والعينين، والقَصَرَة، واللِّهْزِمة، والكَتِد، والزَّوْر، والساعد، والعضُد، والكف، والمخالب، والأنياب، والفم،..)، فضلاً عن وصفه النفسي وحركته والأصوات التي تصدر عنه (يتظالع، بغيه، نحيط، غطيط، نقيض، وميض، كَشَر، تمطَّى، نَهَمَ، زفَرَ، بربَرَ، زأَرَ، جرجَرَ..)، وربما يفسِّر لنا ذلك تعرض الأسد

له حقيقة مرة في حياته ونجاته منه بأعجوبة لما مال إلى كلبه فافترسه بدلاً منه، وهذا ما شكل في نفسه عقدة جعلته يدقق أكثر فأكثر في أثناء حياته بعد ذلك في أعضاء الأسد وطبيعة حركته وأصواته. وجاءت صورة الأسد عند بديع الزمان مجملة مختصرة، إلا أنها مرعبة جداً وخاصة حين قال: (فإذا السَّبُع في فروة الموت)، وإذا كان الأسد يتخذ من الموت فروة يتلفع بها فهو في قمة الخطر، ويركز على الصفات النفسية عنده في هذه الصورة، وهي الأنفة والكِبْر والخيلاء والشجاعة المفرطة. ونخلص من الصورتين إلى أن الغاية منهما كانت واحدة، وهي إظهار الصورة المرعبة جداً للأسد والمبالغة فيها لتحقيق أكبر قدر من الخوف منه والتشويق لمعرفة نتائج ظهوره وطريقة تصرفه مع القوم الراحلين.

الختام:

ونعود، أخيراً، إلى طرح سؤالنا الكبير الذي ابتدأنا به بحثنا هذا، وهو سؤال مشروع بطبيعة الحال: هل كان أبو زبيد الطائي ملهماً لبديع الزمان في اختراع فن المقامة بوصفه نوعاً نثرياً جديداً ومركَّباً في أدبنا إن كانت (مقامته الأسدية) أولى مقاماته على الإطلاق أم كان ملهماً له في هذا النص فقط إن كان قد جاء في وقت لاحق لإنتاج مقاماته الأخرى أو في سياق إنتاجها ؟ يمكننا الإجابة عن مثل هذا السؤال بالقطع أو بالرجحان أو بالنفي حين نملك دليلاً يساعدنا على إصدار أحد هذه الأحكام: مع تسليمنا هنا طبعاً بأن هذه (المقامة الأسدية) في شطرها الأول إنما كانت بإيحاء واضح من وصف الأسد الذي اشتهر به أبو زبيد في شعره ونثره، بدليل مستويات التناص هذه التي تطرقنا في هذا البحث إلى تحليلها وإثباتها.

المصادر والمراجع

(1) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (م356هـ) - طبعة مصورة في (مؤسسة جمال للطباعة والنشر ببيروت) عن طبعة دار الكتب المصرية، ج12.

(2) تاريخ الأدب العربي - ترجمة: الدكتور إبراهيم الكيلاني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1973.

(3) تاريخ الطبري (أو: تاريخ الرسل والملوك) لمحمد بن جرير الطبري (م310هـ) - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، 1967-1977، ج4.

(4) الحماسة البصرية لصدر الدين البصري (م656هـ) - تحقيق: الدكتور عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1420هـ/1999م، ص1504-1507.

(5) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر البغدادي (م1093هـ) - تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط4، 1418هـ-1997م، ج4.

(6) دراسات في النص والتناصية (مقالات مترجمة) للدكتور محمد خير البقاعي- مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1، 1998: مقالة (رولان بارث) R. Barthes: من العمل إلى النص.

(7) شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني - تحقيق: الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، ط2، 1381هـ/1962م، ص35-46 (ورقم هذه المقامة فيه 6).

(8) الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري (م276هـ) - تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ط1، 1966.

(9) انظر نصها في: طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين لمحمد بن سلام الجمحي (م231هـ) - تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، تاريخ مقدمة المحقق 1394هـ/1974م، ص593-599.

(10) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لأبي الفتح بن الأثير (م637هـ) - تحقيق: الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 1411هـ-1990م، ج1.

(11) معجم الأدباء (أو: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) لياقوت الحموي (م626هـ) - تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993، الترجمة (78)، 1/234-253.

(12) مقامات الحريري للقاسم بن علي الحريري (م516هـ) - دار صادر، بيروت.

(13) مقامات الزمخشري لمحمود بن عمر الزمخشري (م538هـ) - المكتبة الأزهرية بمصر، ط1، سنة 1325هـ. ودار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1425هـ-2004م.

(14) الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني (علي بن عبد العزيز) (م392هـ) - نسخة إلكترونية منضدة.

(15) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لشمس الدين بن خلِّكان (م681هـ) - تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الترجمة رقم (52)، 1/127-129.

(16) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور الثعالبي (م429هـ) - تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1403هـ-1983م، الترجمة رقم (64)، 4/293-344.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2013/3/27.